

"جوانب من تاريخ سلطنة الطوارق بمنطقة الآبير في القرن 15م":

الأستاذ: إبراهيم بتهقه

جامعة خميس مليانة

b.betka10@gmail.com

الملخص:

شهد مطلع القرن الخامس عشر ظهور سلطنة جديدة في الصحراء الوسطى، كان وراء تأسيسها هذه المرة قبائل الطوارق المتوزعة في إقليم الآبير (شمال دولة النيجر اليوم)، والتي كانت قد وفدت للمنطقة منذ القرن 12م نازلة من منطقة أوجلة والفران (صحراء ليبيا حاليا)، لكنها لم تعرف الانتظام ككيان سياسي في هذه القرون الطويلة السابقة، وكان الصراع فيما بين هذه القبائل من جهة، أو بينها وبين جيرانها من قبائل "الهاوسا" و"الزارما" و"الماوري" من جهة ثانية هو سمة حياتها أول الأمر، إلا أنه مع تزايد ظهور الممالك والامبراطوريات السودانية في الجنوب وتوسعاتها شمالا على أراضيها، خاصة وأنها تعد ممرا مهما للقوافل التجارية العابرة للصحراء النازلة من شمال بلاد المغرب إلى بلاد السودان في الجنوب، جعلها دائما عرضة للغزوات والسيطرة من هذه الممالك، لذلك وكرد فعل على هذا الوضع أرادوا تشكيل كيان سياسي مستقل بهم في المنطقة، يعبر عن هويتهم وإثنتهم الخاصة في عمق هذه الصحراء الشاسعة.

الكلمات المفتاحية: الطوارق، سلطنة الآبير، الصحراء الوسطى.

مقدمة:

عادة ما يُلجأ إلى الاهتمام بتاريخ شعب ما أو مجتمعات وقبائل بالأحرى، نتيجة ظهور فعل سياسي قد يكون خطيرا، في سيرورة تطور هذه المجتمعات لفهم واقعها الحضاري والذي قد تراه متباينا في نظرها كجزء على الأقل من كيان سياسي جامع، وخاصة لما يتعلق الأمر أكثر بنوازع من أحاسيس وشعور تضرر إشكالية هوية ووجود. تتسبب في تكوينه وإيجاده مرارة صعوبة العيش في زمن طال أمده، دون أن يلوح بصيص أمل في المستقبل المنظور أيضا، وكأنها تؤكد الشعور بحتمية افتعال سياسة التهميش والإقصاء. وبالتالي حتمية تأسيس فعل مضاد كذلك.

هذا الأمر ما أستشفيناه من دراستنا لتاريخ قبائل الطوارق، فالأحداث السياسية التي كانت -وما تزال- تمر بها دولة النيجر عقب الاستقلال من المستعمر الفرنسي الذي خلف قبائل موقوتة في كامل مستعمراته، والتي منها مشكلة الطوارق في دول الساحل خصوصا، التي دخلت في صراع مع الحكومات المتعاقبة عندما أحست بالتهميش في التنمية، والإقصاء من المشاركة في الحكم، بل وصل الأمر للمطالبة حتى بالانفصال. لتزيد الطينة بلة في مشاكل البناء الوطني في هذه الدول، هذا ما ساعد على ظهور كتابات تؤيد هذا الطرح أو تدحضه على حسب انتماء كل كاتب لأحد المعسكرين وغاياته.

ليبرز هنا الإنجاز الكبير الذي قام به الدكتور "جيبو مالام هاماني *Djibou Mallam Hamani*" عن تاريخ سلطنة الطوارق في منطقة الأيبير (الجزء الشمالي الكبير لدولة النيجر الآن) خلال القرن 15م في بحث يزيد عن ألف صفحة تقدم به لنيل درجة الدكتوراه من جامعة "باريس 01" في ثمانينات القرن الماضي لما كانت بلده تزرع في مقاومة المتمردين الطوارق، إعتد فيه بشكل كبير على الروايات الشفوية، إضافة لكتابات عدة أنثروبولوجيين فرنسيين إهتموا بموضوع الطوارق، وهم إلى اليوم في حقيقة الأمر يهتمون به لغايات سياسية

وايديولوجية واضحة، وما أعمال "هيلين كلودو H l ne Claudot" المعروفة بلقب زوجها الطارقي "هاواد Hawad" المناصر لقضية الأزواد شمال مالي، والتي دائما تؤكد في كتاباتها لوجود أمة طارقية واحدة منطلقا من مفهوم "تموست Tamust"، الذي لا يسع المجال للخوض فيه الآن. فمن أعمال هذا الباحث إستقينا أكبر قدر معلومات هذا المقال، مع إثرائه بكتابات تناولت الموضوع وأشارت إليه نراها جادة كذلك، وهذا لنقدم موضوعا غير مطروق في الكتابات العربية على الأقل، ليستفيد منه المهتمين أو الذين يريدون استزادة عن تاريخ قبائل الطوارق.

1- تأسيس سلطنة الآيبر:

كان لميلاد سلطنة الطوارق بالآيبر⁽¹⁾ مطلع القرن 15م، أثر بالغ الأهمية في تاريخ منطقة السودان الغربي عموما، والآيبر ومنطقة الصحراء الوسطى الجنوبية خصوصا، وهذا راجع لخاصية المنطقة المتكونة من مجموعة من قبائل الطوارق عرفت الصراع فيما بينها لأمد طويل، وكانت محل أطماع السلطنات والممالك المجاورة لها من جهة الأخرى.

فتأسيس سلطنة الآيبر جاء نتيجة الفوضى التي كان يعيشها الآيبر، وكانت سببا لمحاولة سيطرة الأجانب عليه، على غرار ملك البورنو الذي قام بغزوات عدة فيه، ولصراع القبائل فيما بينها وبالأخص كال أواي وكال غرس، وهذا ما أدى بهذه القبائل إلى أن تقف وقفة تأمل في حالها، لأن إستمرار الصراع لا يجلب إلا الضعف وزيادة أطماع الآخرين.

لذا ورغبة من هذه القبائل، وخاصة كال غرس وكال أواي إلى العيش في سلم وتمتين علاقة القرابة بينهما بعد حروب طاحنة جمعتهما وجها لوجه، قرروا إنتخاب رئيس مشترك يجمعهم، ويكون حكما لهم في جميع أمورهم، إلا أنه رغم هذه الخطوة التوافقية الأولى، ظهر خلاف فيما بين هذه القبائل وأفضى إلى مسألة غاية في التعقيد، وهي إلى من يكون الشرف من بين القبائل سينتمي أول رئيس أو سلطان على الطوارق.

لذا وأمام تعصب رأي كل قبيلة، إلى أن يكون أول سلطان منها، خلص الأمر فيما بينهم أن مشكلة التزعم هذه ستكون سببا آخر لتفرقهم وفتنة لهم مستقبلا، فقرروا أن يكون السلطان خارج الطوارق كليا، بل يجب أن يكون من عائلة شهيرة ومن أعلى نسب، بل وحاكمة لجميع العالم الإسلامي، الشيء الذي أدى بهم إلى تكوين وفد يضم ممثلا عن كل قبيلة للتوجه إلى سلطان إسطنبول، ليترجوه بمنحهم أحد أولاده ليكون سلطانا عليهم، وهناك من يرى أن الوفد تكون من قبائل كال غرس والإيتزين، ولم تكن هناك قبائل أخرى وفدت إلى الأيبر في ذلك الوقت⁽²⁾، وبعد أن قابل الوفد سلطان إسطنبول⁽³⁾ وأسمعوه طلبهم، رفضت كل نساء السلطان أن تقدم ابنها ليكون سلطانا على الأيبر، ثم عين لهم السلطان ابنه يونس وكان من جارية سوداء، وقدم سلطان الطوارق إلى الأيبر بمعية 4000 جندي أوفدها معه والده سلطان إسطنبول، واستقروا بادئ الأمر في جبال الباغزان *Bagzin*، وكان ذلك في بداية القرن 15م، فاتحا بذلك ميلاد سلطنة الأيبر.

لقد تبنى هذه الرواية العديد من الكتاب والمؤرخين⁽⁴⁾، رغم أنها تعتمد على الرواية الشفوية فقط، هذا السبب جعل مؤرخين آخرين يرفضون هذا الطرح فأن يتجه الطوارق من الأيبر حتى إسطنبول ليطلبوا سلطانا أمره مشكوك فيه، وهذا ما يذهب إليه "جيبو"⁽⁵⁾ *Djibo*، فالمعروف أن إسطنبول كانت هي القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والتي لم تفتح من طرف المسلمين إلا سنة 1453م، أي بعد 50 سنة من تأسيس سلطنة الأيبر، وهذا ما يتعارض والرواية السابقة، إضافة لهذا فقد عرفت السلطنة العثمانية فترة فراغ سياسي، لعدم تنصيب سلطان لمدة عقد من الزمن (1402-1412م) لنشوب حرب أهلية بها⁽⁶⁾.

لقد جاء في مخطوط "أصل سلطنة آهير"، أنه بعد أن أبعدت قبائل إسندانل *Issandalan* كل الشعوب السوداء من بلاد الأيبر⁽⁷⁾، عاشوا طويلا فيها بدون سلطان،

وعند وقوع أي مشكل كانوا يحتكمون عند شيوخ وكبار القبيلة، كما عند العرب سابقا، وعندما تزايدوا وانتشروا وقامت بينهم حروب اهدت 05 قبائل من أشرف إسندالن بالبحث عن سلطان يحكم بينهم، والذي وجدوه في بلاد "أغرم ساتافان *Aghram Sattafan*" فأتوا به وأقاموه بتاداليزا⁽⁸⁾ *Tadaliza*، وهذا ما يدل على أنه لا وجود لسلطان من اسطنبول. وهذا المخطوط كان محتفظ به سلاطين الأيبر، وتعني أغرم ستافان "المدينة السوداء"، والتي توجد بالفزان، إذن سلاطين الأيبر من الطوارق عكس الروايات السابقة⁽⁹⁾ وأولهم "يونس بن تغغ تهنزيت *Tagag tahannazayyat*".

سلاطين الطوارق الأوائل:

حسب مخطوط "تاريخ سلاطين أهير من أصل أغيجي وتعزرت"، فإن أول سلاطين الطوارق في الأيبر، كان يونس ولم تذكر المصادر لا اسم والده ولا قبيلته واكتفت بذكر إسم أمه "تغغ تاهنزيت"، وخالته "أهنص *Ahinas*" وهذا ما يدل على أصله البربري، ابتداء حكمه من سنة 807هـ / 1404م إلى غاية 827هـ / 1424م، وأول مقر له كان بمنطقة "تاداليزا"، التي تقع جنوب مرتفعات الأيبر، وتبعد بـ 20كم شمال مدينة "أغداس"، وكان في شمال واد تاداليزا وعلى مسافة 200 كم من كوري *Kori* الحالية يوجد "جيدان ساركي *Gidan Sarki*" أي منزل السلطان وهو مبنى ضخم وحصن منيع شيد في أعالي التلال الصخرية.

وبعد أن حكم يونس 20 سنة خلعه ابن أخته أفنسان *Afenssan*، وبعد ست 6 سنوات من الحكم خلع عن الحكم هو الآخر من طرف أخيه الصغير إليسوا⁽¹⁰⁾ 833هـ / 1430م، وتوفي بعد أن قضى 21 سنة في الحكم، ثم أعقبه أخوه أمين *Amine* أو *Amini* الذي حكم 4 سنوات وقتل سنة 858هـ / 1454م، والذين قتلوه هم أهل تاسنغات *Tasannagat* الذين استولوا على الحكم، وبوصولهم قامت حرب أهلية بين العائلتين الحاكميتين وأنصارهما، دامت شهرين⁽¹¹⁾ إلى أن عاد الحكم في أسرة "تاغزرت زيغرات

Taghzarat Zigrat ونُصب إبراهيم بن هالازي *Halazi* وحكم 9 سنوات، ثم تنازل لابن أخته يوسف بن عيشة، سنة 866هـ/1461م وحكم 16 سنة⁽¹²⁾، وفي عهده نقلت العاصمة إلى أغداس.

أغداس العاصمة الجديدة للسلطنة:

حسب المستكشف الألماني "هنري بارث *Barth H.*" كان تأسيس أغداس في سنة 1460م⁽¹³⁾، وكما سبق ذكره فإن السلطان يوسف هو أول من إستقر بأغداس وسمي قصره بـ "جيدان يوسف *Gidan isuf*"; أي بيت يوسف، فلما أراد السلطان أن يغادر مرتفعات "أغاياجي *Agayyagi*"، جاءت قبائل "الإيتراين" إلى أغداس، وطلبوا من أهلها الغوبيراوا *Gobirawa* و"الإيباركورين" أن يمنحهم مكانا لإقامة بيت للسلطان فرفضوا أول الأمر، ثم اشتروه منهم بمبلغ 1000 دينار⁽¹⁴⁾، وبنوا دار السلطان بها.

هذا التحول يعتبر نقلة نوعية في حكم السلطنة بالخروج نهائيا من منطقة الصخور والجبال العالية من "تادليزا" و"أغاياجي" إلى "أغداس" التي تختلف عن سكنى الطوارق في الجبال والبعد عن السهول، وربما يعود هذا كعامل وقاية وحماية للسلطان والسلطنة في الأول حتى يشتد عودها، وحتى هذا الإنتقال يبدو أنه كان تدريجيا بالنسبة للطوارق، أو ربما إقتصر على السلطان فقط، فإسم أغداس *Agades* وإغداس *Egades* ظهر ليدل على المدينة، ومصطلح تيغاداس *Tegades* يعني "زيارة" بلغة التامشاغ، وحسب الروايات فإن الطوارق لا يستطيعون العيش في المدينة، وإنما يكتفون بالزيارة بالقرب من سلطانهم، ومن هنا سمي البدو الرحل هذا المكان بـ إغداس *Egades* وأهله بـ إيماغاداسن *Imaggadasan* مفرد إيمغاداس⁽¹⁵⁾ *Emaggades*.

الظروف الإقليمية عادة استقرار سلطان الآيبر بأغداس:

تميزت ظروف استقرار السلطان يوسف بأغداس، بتزامن عدة أحداث تاريخية مهمة في المنطقة الممتدة من نهر النيجر حتى بحيرة التشاد، ففي ناحية التشاد كان ظهور ميلاد حكم السايفاوا *Sayfaoua* للبورنو، الذي زاد من حراك وتوسع سلطنة البورنو، وفي غرب البورنو عرفت بلاد الهاوسا تطورا سياسيا واقتصاديا معتبرا، كما ظهرت في كاتسينة *Katsina* أسرة حاكمة جديدة مع محمد كورو *Korau* في منتصف القرن 15م، كما عرف إزدهار تجارة السودان الأوسط بالخليج الغيني، وشرع حكام كانو *kano* في تطوير الصناعة في المدينة موسعين نفوذهم نحو الجنوب، كما قامت تجارة جهوية بين البورنو *Bornou* وغانجا *Gwanja* (غانا الحالية) عن طريق كانو *kano*، واشتد تماسك الروابط بين إمارات الهاوسا وإفريقيا الشمالية، عن طريق الآيبر في عهد سلطان كانو "دان عبد الله بارجا" *Dan Abdullah Barja* (1452-1463م)، واستقر العديد من التجار العرب في كانو وكاتسينة⁽¹⁶⁾.

في حين كانت مملكة سنغاي بـ "غاو" *Gao* في الظل رغم التاريخ الطويل والتجارة المهمة التي عرفت بها، إذ كان عليها انتظار حكم سني علي بر (1464-1492م) لتتحول إلى قوة جهوية، وتتمكن من احتلال حاضرة "تمبكتو" في سنة 1469م، مما أعطاهما المركز التجاري الأول في غرب إفريقيا عن طريق حركة القوافل وتجارة الذهب.

في ظل هذه الظروف استطاعت العائلة الحاكمة للسلطنة أن تستقر، عاملة على تجذر قبائل الطوارق في أغداس، إذ تعاقب حكم 4 سلاطين في النصف الثاني من القرن 15م، فبعد أن حكم "يوسف بن عيشة" 16 سنة تم عزله في سنة 882هـ/1477م لفائدة "محمد الكبير" الذي حكم 10 سنوات 892هـ/1487م، والذي عوض بـ "محمد ستافان" *Sattafan* الذي حكم لغاية 899هـ/1494م لمدة 7 سنوات، ثم عوض بابن أخته "محمد

بن عبد الرحمن" المسمى "تالزي تانات *Talzi tanat*" الذي توفي في الحكم سنة 908هـ/1502م⁽¹⁷⁾.

العلاقات الخارجية لسلطنة الأيبر في القرن 16م:

أ- مع إمبراطورية سنغاي:

لقد قامت إمبراطورية "سنغاي" على أنقاض إمبراطورية "مالي"، هذه الأخيرة وحسب المصادر التي تناولتها لا توجد أي إشارة لسيطرة إمبراطورية مالي على الأيبر أو تجيدة، أما فيما يخص سنغاي فقد أشار اليعقوبي (القرن 09م) إلى أن نفوذ ملك غاو إمتد حتى مارندا⁽¹⁸⁾ *Maranda*، وهذا قبل أن يصل الطوارق إلى منطقة الأيبر بشكل ملحوظ، وكانت سنغاي في بداية ظهورها، إذ لم تصل مرتبة المملكة القوية إلا بعد حكم سني علي (1464-1492م)، وأصبحت هذه القوة مجاورة لإقليم الأيبر، ونظرا للدور الكبير الذي تمثله منطقة الأيبر في التجارة العابرة للصحراء من خلال مرور القوافل بها، الشيء الذي زاد من أطماع إمبراطورية سنغاي عليها، وشهد أول غزو لها على الأيبر، من طرف صاحب الانقلاب على العائلة الحاكمة، "الأسقيا محمد" وذلك سنة 1500م⁽¹⁹⁾، وتجدد الغزو مرة ثانية سنة 1515م نحو أغداس، فسمح هذا الغزو بتقوية نفوذ سنغاي على الطريق التجاري للقوافل بين غاو ومصر.⁽²⁰⁾

ب- مع بلاد الهاوسا:

تحكم في علاقات سلطنة الأيبر مع بلاد الهاوسا العامل التجاري، فبلاد الهاوسا كانت تهمها أغداس كمركز تجاري، وهذا لتضمن بلاد الهاوسا إستقلالية علاقاتها نحو الشمال، كما أن التجارة مع إمارات الهاوسا هي لوحدها التي باستطاعتها أن تسمح لأغداس بلعب دور مميز مع مثيلاتها ولاتة، وتادمكة، وتجيدة، وبيلما *Bilma*، فالمؤكد أنه بعد

ازدهار اقتصاد بلاد الهاوسا، زادت الطرق المؤدية من أغداس إلى كانو *Kano* وكاتسينا *Katsina*، التي ساهمت في تقوية المداخل باقتطاع الرسوم، كما زاد تسارع المبادلات في تطور الصناعات المحلية، وأدى لازدهار التجارة المتوجهة إلى الشمال وإلى خليج غينيا.

ج- مع مملكة البورنو:

شهدت العلاقات بين مملكة البورنو وسلطنة الأيبر توترات مستمرة، والذي كان وراءه دائما سلطان البورنو نتيجة أطماعه في مناطق الأيبر الجنوبية الخصبة، إذ شهد الأيبر سنة 1532م، غزو البورنو لمناطقه الشرقية، هذا التاريخ الذي يوافق حكم إبراهيم بن محمد ستافان *Sattafan*، ويعتبر هذا أول أهم حدث بين الطرفين، وزاد إهتمام البورنو بالأيبر وغزوه خاصة أثناء حكم محمد الأديل *Aladil*، إذ تعتبر منطقة الأيبر مجالا حيويا أفضل من الكوار *Kawar* والفران، وكانت مناطق الصراع بين الطرفين خاصة في الجهة الشمالية الشرقية للأيبر، المتاخمة لبلاد الطوارق والمجاورة للبورنو مثل تسوتسيباكي *Tsotsebaki*، مينيو *Muniyo*، والكيتيس *Kutus*، التي تعتبر هوامش سلطنة البورنو من الجهة الشمالية الغربية.

وكان لاستقرار قبائل طوارق الإيماكيتين *Imakitten* في "الكيتيس" في بداية القرن 15م، طاردين بذلك السكان السودانيين إلى الجنوب أكثر (الجهة الغربية للبورنو)⁽²¹⁾، وهذا ما أدى بالسلطان "مي إدريس *Mai Idriss*" المعروف بإسم "إدريس علومة *Alawama*" إرسال عدة حملات عقابية إمتدت حتى نهاية القرن 16م وكانت لظروف المجاعة التي ضربت البورنو خلال القرن 16م، قد دعت حكام البورنو بأن يُغيروا على الأيبر ويُجبروا الرحل على التوجه جنوبا.

ويعتبر السلطان "إدريس علومة" من أشهر حكام الكانم بورنو، حكم في بيرني كازارغامو *Birni Gazargamo* من سنة 1569م إلى 1600م، وقام بعدة غزوات على

الأيير، وربما أخذ بفتوى الفقيه "ابن فرثية" في إعلان الجهاد في المنطقة باعتباره الخليفة وأمير المؤمنين، إذ قاد إدريس بنفسه 3 حملات على بلاد الطوارق، كان فيها على رأس الجيش.

الحملة الأولى : تسمى سيكتالا *Siktala* أو باتراس *Batras* وربما هو إسم مكان بئر أو واد، إذ أجبر هذا الغزو سكان الموقعة إلى الهروب إلى الصحاري مع أولادهم ونسائهم ومتاعهم، إلا أن جيش البورنو لحق بهم بعد تعقب آثارهم وقتل 09 من خيرة مقاتليهم، وأسر نسائهم وأولادهم وصادر أمتعتهم وعاد إلى البورنو⁽²²⁾.

الحملة الثانية : كانت ضد سكان دنكير *Dankir*، وانطلقت من مدينة كيلوة *Kuliya* أو لاستارا *Lastara* ولم يصلوا إلا بعد يومين إلى المكان المقصود وتراجع إدريس بعد أن انتصر.

الحملة الثالثة : إنطلقت من مدينة "أتاربيسا *Atarbissa*" في الكيتيس وتواجه جيش السلطان إدريس بـ جيش أهل الأيير في مدينة "تيداسا *Tedessa*" بعد أن جاء جيش إدريس من مدينة غامارما *Gamarma* (شمال شرق تانوت *Tanot* في الدمغو *Damargo*) وقتل جيش الأيير عن آخره، إلا من فر، ثم عاد إدريس أدراجه، أين توقف في مدينة زيبادي *Zibedu*، ثم شد الرحال إلى عاصمة مملكة تسوتسيباكي وإستقر فيها عدة أيام، ومنها إلى عاصمة مملكة المينييو *Muniyo* قبل أن يعود إلى البورنو، وكل هذه الأحداث جرت في نفس العام الواحد⁽²³⁾.

لكن قبل مجريات كل هذه الأحداث كان الطوارق قد أتوا بجيوش غفيرة وأرادوا مواجهة واستفزاز سلطان البورنو في ساحة المعركة، إلا أن السلطان إدريس الذي كان مستقرا في مدينة كيسيمبو *Kessimbu* رفض أن يواجههم بنفسه، وأرسل وزيره كيرسو *Kursu* على رأس الجيش لمواجهة واحتقاراً لشأنهم، وبعد أن ثبت الطوارق في بداية المعركة، اضطربوا

واختلفوا وتضعض جيشهم وانهزموا في النهاية ولاحقتهم قوات "البورنو" وقتلوا أعداد كبيرة منهم، وأخذوا الكثير من الغنائم من جمال، عبيد، وأسلحة، إلا أنه لا توجد إشارة لسنة هذه المعركة أو تاريخاً لها، إلا أنهما التقيا في مكان أغالوا⁽²⁴⁾ *Aghalwa*.

2- إمبراطورية سنغاي:

كان وراء ميلاد مملكة سنغاي قبائل اللمتة، من عائلة ضياء من أمراء البربر في المكان المسمى غونغيا *Gounguia* بالقرب من بنتيا *Bentia* المجاورين لنهر النيجر، والذين احتفظوا بالسلطة طيلة 6 قرون من سنة 690م إلى غاية 1335م⁽²⁵⁾، وتوسعت سلطتهم نحو الشمال والشمال الغربي مسيطرين بذلك على شعوب ضفاف نهر النيجر، وفي حدود سنة 1000م حُولت العاصمة إلى غاو *Gao* وعرفت بإسم مملكة سنغاي خلال القرون 11، 12، 13م وازدادت قوة المملكة توسعا حتى منطقة البحيرات غرب تمبكتو، لكنها اصطدمت بقوة منافسة من جهة الغرب وهي إمبراطورية الماندينغ أو "مالي"، الذين غزوا سنغاي واستولوا على غاو *Gao* في سنة 1325م.

وبعد عشر سنوات وعلى إثر خلع عرش العائلة الحاكمة "ضياء" من طرف عائلة "سني"، الذي استعاد غاو *Gao* وحرر سنغاي من نفوذ الماندينغ حتى أبواب تمبكتو، واستطاع "سني علي" الاستيلاء على مدينة "تمبكتو" في سنة 1468م وأعاد بذلك حدود إمبراطورية سنغاي كما كانت خلال القرن 13م، وبحلول سنة 1493م تم خلع عرش عائلة "سني" هو الآخر من طرف قائد الجيش "محمد توري" السراكولي، الذي إستولى على السلطة واتخذ إسم أسقيا *Askia*، والذي قام بحملة على الآبير في سنة 1515م⁽²⁶⁾.

علاقة الطوارق مع إمبراطورية سنغاي:

من بين الإمبراطوريات التي عرفت بلاد السودان كغانة، ومالي، وسنغاي، كانت هذه الأخيرة الأقرب إلى بلاد الطوارق، ولأن مجتمع الطوارق قبائل عدة ومتفرقة، كانت القبائل الغربية من الإمبراطورية موالية لها.

لقد كان الطوارق الأسياد في "تمبكتو" ابتداء من سنة 1413م، ولما استولى طوارق مغشرن على تمبكتو في سنة 837هـ/1433م، وتولى أكيل *Akil* سلطانا على الطوارق بقوا على حالهم في سكنى البراري، وفوض أمر تمبكتو إلى الحاكم "تنبكت كي" (27) محمد نض"، وهو صنهاجي بنى المسجد بها وجعل الولي الفاضل "سيدي يحي التادلسي" إماما فيه، ولما توفي "محمد نض" عين أكيل ابنه الأكبر "عمر"، وكان فاسقا ظالما فعزله أكيل وحكم هو مكانه، فأراد "تنبكت كي" عمر بن محمد نض "الانتقام منه، فأرسل إلى "سني علي" يحرضه على غزو تمبكتو ويأمن بها مالا كثيرا، فجاء "سني علي" بجيوشه، مما اضطر "أكيل" إلى الهرب مع فقهاء جامع "سنكري" بألف جمل إلى بلاد بير (ولاتة).

ودخل "سني علي" على تمبكتو فخرّبها ودمرها وعاث فيها فسادا في سنة 1469م، وقتل فيها أناسا كثيرين من العلماء والفقهاء، مما أجبر الكثيرين فيما بعد على الخروج إلى بير (ولاتة)، وهرب الكثير من الفقهاء إلى تجيدة فأتبعهم "تنبكت كي المختار بن محمد نض" (أخو عمر بن محمد نض)، فعمل السيف فيمن بقي منهم هناك بحجة أنهم ما توجهوا إلى تلك الناحية إلا ليستغيثوا بالطوارق ويأتوا بهم لأجل الانتقام منه (28).

وبين سنة 1500م و 1504م توجه "الأسقيا الحاج محمد" نحو غزو الأيبر الذي وصله بإجتياز الأزواغ، وخلال هذه الحملة وبمساعدة ستة 6 جيوش: منها نتيسوم *Nteçum*، تجيدا *Tigguida*، تجيدة تاغيت *Tigguida Tagait*، وأزليك *Azelik* وهزموا طوارق إينوسفن *Inoussoufane* (29)، وسحقوا نهائيا تحالف وتكتل هذه القبائل في سنة 1504م، وعلى إثر هذه الغزوة ترك سلطان سنغاي 6 مرابطين لتعليم الطوارق الإسلام

وتمكنه في المنطقة، كما غزا "الأسقيا الحاج محمد" بلاد الأيبر في سنة 1515م والذي مكث في الحكم 36 سنة و6 أشهر، واستطاع أن يفرض على أميرها ألفا وخمسمائة أوقية⁽³⁰⁾.

ولما تولى إسحاق الأول (1539م-1549م) شأن الإمبراطورية، بعث إليه سلطان مراكش مولاي أحمد الكبير (1518م-1544م) أن يسلم له أمر معادن تغازة فرد عليه بالجواب: " أن أحمد الذي سمع ليس هو إياه، وأن إسحاق الذي سمع ليس أنا إياه مازال ما حملت به أمه "⁽³¹⁾، ثم أمر بـ 2000 فارس من الطوارق أن يغزو على سوق بلاد "درعة" القريبة من مراكش دون إزهاق روح، ففعلوا وأخذوا كل ما في ذلك السوق، وهذا ليرى السلطان قوته⁽³²⁾.

هذه الحادثة تدل على أنه كانت توجد عدة قبائل من الطوارق منضوية تحت حكم الأسقيا وسلطانه، يأمرهم فيأتمرون، إلا أن هذا لا يعمم على كامل قبائل الطوارق، وإنما على القبائل القريبة منه فقط، وكان "الأسقيا داوود" إذا نادى للغزو يجب أن يأتي جيش من الطوارق مكون من 12 ألف جندي، وهي عادة جارية بينهم وهذا ما حدث في غزوة ضد بلاد أترام⁽³³⁾ Attaram جهة الغرب في سنة 978هـ/1570م، إذ جاءه من سلطان كال نان "الحاج محمد بير بن محمد الليم بن أكلنص" 12 ألف جنديا ليشكل جيشا من 24 ألف جندي، وأغار على العرب الذين في تلك المنطقة⁽³⁴⁾.

3- الطوارق بعد حملة المغاربة وحكم الباشاوات:

بعد سقوط تمبكتو على يد جيش الباشا جودر في أفريل 1591م، التي كانت مكونة من 1000 جندي⁽³⁵⁾، سقطت بذلك عاصمة سنغاي الاقتصادية وتراجع حكم الأساقي، واضطرب حال أهل تمبكتو بين الخضوع للغازين الجدد، أو البقاء أوفياء لحكم الأسقيا

والخروج معه، وهكذا كان حال الطوارق الذين فضل بعضهم الوقوف إلى جانب الأسقيا، مما أدى بجيوش الباشاوات المتعاقبين إلى مطاردتهم بيد من حديد.

ورجع الكثير من الطوارق فيما بعد كما حدث مع طوارق أهل كاغ، الذين هربوا أول الأمر مع "جنكي أبو بكر" رئيس ولاية "جني *Djené*" الذي رفض الولاء للباشاوات، وظل مع الأسقيا، حتى استنجد أهل "جني" بباشا تمبكتو وأعلموه أنهم ليسوا مع "جنكي" وأنهم سيعاونونه في طرده، وكان ذلك في سنة 1063هـ/1653م، وكما هو الحال فقد لبّى الباشا "أحمد بن الباشا حدّ" وتحاربوا أيام عدة، حتى إضطر "جنكي" أن يستأذن على نفسه بصاحب ماسينا *Macina* ليدخل في طاعة الباشا وكان له ذلك⁽³⁶⁾.

لقد رفض الطوارق حكم الباشاوات والخضوع لهم، الأمر الذي خلق توترا بين الطرفين بقيام عدة حملات، تارة من طرف الباشاوات لإخضاع الطوارق، وتارة من الطوارق للمقاومة ورفض الوجود المغربي، فقد قاد الباشا "منصور بن مسعود بن منصور الزعري" الشهير بالقائد "سنيبر" في أواسط سنة 1099هـ/1699م محلة إلى غاو، وطرد الطوارق منها وقتل كبراءهم وسبا أطفالهم ونساءهم وساق ممتلكاتهم من أبقار ومواشي⁽³⁷⁾.

لقد أبدى الطوارق معارضة لحكم الباشاوات وعدم الخضوع لهم، فطوارق "تادمكة *Tadamaket*" دخلوا في صراع غير منتهي مع الباشاوات، ففي سنة 1145هـ/1732م غار طوارق "تادمكة" على جزيرة "ينديغ"، واستولوا على جميع ما في الجزيرة وفيها بقرات القائد "منصور"، وحملوا 30 رأسا من الشاة و31 خادما و99 جارية وقتلوا اثنين من أهل الجزيرة، وحدث هذا قبل أن تمضي 07 أيام من تعيين الباشا محمد بن القائد منصور بن الباشا "مسعود بن منصور الزعري" المعروف بالقائد "محمد بج"، كما سبق أن خربت قرية "أمزغ" على أيديهم ورئيسهم يومئذ "أكرام بن الأول" في عهد الباشا "علي بن مبارك الكاهي" في سنة 1124هـ/1712م⁽³⁸⁾.

الطوارق وتعيين الباشاوات:

عرف عن الطوارق استعمالهم الحيل والخداع والمكر، فمرة أحضر الطوارق إلى بلاد تمبكتو بقرا وغنما كثيرة، بقصد مبادلتها بألبسة ومنتجات ومواد إستهلاكية، فخرج إليهم أهل تمبكتو مسرعين فرحين، ولما تمكنوا منهم، جردوهم من ثيابهم واستولوا على كل ما يملكون وعادوا أدرجهم، وصادفت هذه الحادثة أن كانت تمبكتو بدون باشا ودام الحال 04 سنوات 1135هـ/ 1722م إلى غاية 1140هـ/1727م وهي المرة الأولى منذ مجيء الباشا جودر، ظلت تمبكتو بلا حاكم ولم يؤول باشا⁽³⁹⁾.

لقد كان الطوارق في أيام ضعف الباشاوات يرشون القواد لعزل الباشا، كما حدث بعزل الباشا "أحمد بن القائد سنيبر" الذي منعهم دخول تمبكتو وبأن لا يكيلوا عند أحد، حين وقعت المجاعة في "أروان" التي أودت وأهلكت منهم خلقا كثيرا، وكان وقتها قائد الرماة "حمد بن الفع منصور" فرشوه ليعزل لهم الباشا، وكان لهم ذلك وعين مكانه الباشا القائد "سعيد بن علي النزريني" الذي كان من قبل، وكان ذلك في سنة 1149هـ/1736م، وما هي إلا مدة قصيرة حتى أعيد من جديد القائد الباشا "محمد بن سنيبر" من طرف الرماة كذلك، فقرر الخروج إليهم ومجابتهم فقاد حملة ضد سلطان طوارق تادمكة "أغمر" ومن والاهم من القبائل الأخرى، إلا أنه لقي حتفه على أيديهم، كما قتل من الطوارق الكثير بسبب رصاص الرماة وكان ذلك في سنة 1736م⁽⁴⁰⁾.

لقد كان بظهور الصراع بين القواد وطموح كل واحد منهم بالحصول على منصب الباشا، إلى استعانة هؤلاء بالطوارق لقلب الحكم وطرد الباشا وتعويضه أو لفرضه، فقد قام القائد منصور بن القائد سنيبر بالإستعانة بطوارق "إيوليمدن"، الذين ضربوا حصارا على تمبكتو مما إضطر الباشا باحد بن القائد يحيى بن علي المبارك الدرعي، الذي عاد لحكم

تمبكتو للمرة الثالثة في سنة 1131هـ/1719م لعقد الصلح مع "أغشيخ" سلطان إيوليميدن بعطية مقدارها 03 آلاف مثقال ذهباً تبراً⁽⁴¹⁾.

كانت قبائل الطوارق التي تخضع إلى حكم الباشا يجب أن يوافق الباشا أولاً في السماح لمن يحكم القبيلة ويقوم بتتصيه، ففي سنة 1153هـ/1740م جاء عند الرماة، "غمان ولد آغ شيخ" سلطان إيوليميدن ليأخذ بإذن الباشا ليكون زعيم قبيلته على عادة أبيه وجده، فجده "كالدن" عينه الباشا "حمد بن علي النزريني"، وعين أبوه "آغ شيخ" الباشا عبد الله بن الحاج العمراني، إلا أن السلطان الجديد لم يجد باشا بالبلد قد عين، فسارع الرماة لتعيين القائد "الحسن بن محمد العمري" باشا على تمبكتو ثم جاؤوا بـ "غمان الطارقي" وقدموه بين يديه مع حضور الجيش، وأعطاه عاداته المعروفة فيما بينهم، وهي إثنان من الخيل أشهب وأحمر وألبسة تقليدية، ونصبوه وضربوا عليه الدفوف وخرجوا معه إلى أن أرجعوه إلى بلده وأهله، ثم عزل الباشا بعد 03 أشهر⁽⁴²⁾.

لقد كان أول سلاطين طوارق مغشرن الذين عينهم الباشاوات، "أوسنب بن محمد بن اليم بن إكلنقي" الذي حارب أهله مع القائد المصطفى التركي، ثم ولي على قبيلته بعد إمتناع "مغشرن كي أكضل" من طاعتهم ولما توفي "أوسنب" خلفه ابن أخته "مود" ثم "محمود كين" ثم "أرهشت" ثم المختار ثم محمود بن محمد بن وسطفن⁽⁴³⁾.

لقد تواصل ضعف الباشاوات المتعاقبين على تمبكتو لصراعهم المتواصل مع الطوارق، ونقصت مساحة تحكمهم بل أخضعوا بدفع الجزية للطوارق في الكثير من المرات، حتى إسم الباشا ألغي في سنة 1780م ولقرن آخر كانت ناحية غاو، وتمبكتو مسرحاً للحرب والنهب والمجازر، في وقت كانت أرض غنية وشهيرة، وظل الأمر كذلك لغاية 1894م أين إستولت قوات العقيد الفرنسي "بونيه *Bonnier*" على تمبكتو⁽⁴⁴⁾.

خاتمة:

يمكن القول في الأخير أنه على الرغم من تمكن قبائل الطوارق (النيجر بالخصوص) من تأسيس سلطنة خاصة بهم تسجل هويتهم في المنطقة، لكن واقع الحال يقول بأنها لم ترق إلى مفهوم السلطنة الحقيقية لأن السلطان لم يكن يتحكم في كامل القبائل بل ضل يخضع لأوامر القبائل الكبيرة، وبقي حكمه شكليا في أغداس، فحتى أراضي سلطنته والتي هي ملك للقبائل تتقاسمها فيما بينها في الحقيقة- كانت تنقص وتنحسر لحساب الممالك والإمبراطوريات القريبة منها بشكل مستمر وتُخضع أكثرية القبائل القريبة منها كذلك.

هذا الواقع هو الذي أراد أن يظهره "جيبو ملام هاماني" في دراسته، على أن الطوارق منذ القديم كانوا خاضعين دائما للسلطات الناشئة ذلك الوقت سواء "مالي" أو "سنغاي"، وبالتالي كانوا دائما ما يمثلون رعايا لهذه الممالك والإمبراطوريات على مر الزمن، ولم يثبت التاريخ على أنهم شكلوا كيانا سياسيا مشتركا انصهر فيه الجميع، بحجة أن كل قبيلة بقيت تحكم نفسها، كما كان حكم سلطان أغداس إسميا فقط عليهم.

هذا رأي نراه صوابا، لكن تجدر الإشارة أنه في لحظة من التاريخ؛ نَظّم سلطان أغداس المدعو "عبد الرحيم تاغاما" ثورة الطوارق الكبرى في سنة 1916م، إستنهض فيها كامل قبائل الطوارق "أينما وجدت" لطرد الاستعمار الفرنسي نهائيا من مناطقهم، في خضم الحرب العالمية الأولى، وحقق نجاحا كبيرا رفقة القائد الكبير "كاوسن آغ محمد وان تجيدة" أرهقوا خلالها كثيرا المستعمر الفرنسي قرابة أربع سنوات، وكادوا يقضوا عليه لو توفرت عوامل أخرى، لذا فهناك من يرى أن هذا الأمر يجب اعتباره في تاريخانية هذه القبائل خاصة مع تزايد الوعي السياسي، ووجود أطراف أصبحت تستهويها مقدرات هذه المنطقة، إضافة لموقعها الجيوستراتيجي أيضا، قد يمكن استثماره إذا ما بقيت هذه المجتمعات تكابد العناء.

الإحالات والتهميش:

(1) الأيبر هو سلسلة جبال تقع بين منطقة الهقار إلى المنطقة الطرابلسية شمالا، وجزء من شمال التشاد والنيجر. له مسافة 200 كم من الشرق إلى الغرب على 300 كم من الشمال إلى الجنوب، وبالنظر لموقعه الجنوبي إلا أنه ليس له الطابع الصحراوي البحث كالهقار والأدرار والتبستي Tibesti وتمثل مدينة أغداس حدوده الجنوبية والتي تقع على نفس خط عرض مع تمبكتو. أنظر للمزيد: Association des Historiens Nigériens (A.H.N): **Histoire de l'espace Nigérien**, Daouda, Laballery, France, 2007, p. 98 ; Maurice Abadie, **La Colonie du Niger**: Société d'éditions Géographiques Maritimes et Coloniales, Paris, 1927, p. 109.

(2) Mallam Hamani Djibo : **Au Carrefour du Soudan et la Berberie, Le Sultanat Touareg de l'Ayar**, 2vol, Thèse de doctorat d'Etat en Lettres et Sciences Humaines, Université de Paris I, 1985, vol1, p. 259.

(3) هذه الفترة توافق حكم السلطان العثماني "بايزيد الأول" حتى إلى غاية سنة 1402م.

(4) منهم: Tardiret R.: «Les Sultans de l'Ai»,

B.C.E.H.S. A.O.F, T. XI, oct- dec 1928, Ed. Librairie Larouse, Paris, p 69 ; Maurice Abadie : Op. Cit., p. 157.

(5) Op. Cit., pp. 267-268.

(6) الغالي غربي: **دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288-1916م**. المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، ص 29.

(7) "أما أصل سلطنة أهير أربعة قبائل: قبيلة إيتيبيا، وقبيلة إجدانوين، وقبيلة أزعر، وقبيلة أجدز، خرجوا من بلاد أوجلا، وطرادوا قبائل السودان من أهير" أنظر مخطوط: "تأسيس سلطنة أهير" قسم المخطوطات العربية والعجمية (IRSH)، نيامي، رقم 40.

(8) Djibo : Op. Cit., pp. 267-268.

(9) ذهب ممثلوا أهم قبائل إيتزاين Itesayen للبحث عن سلطان يكون حكما بينهم في المسائل التي يتعارضون فيها، ووجوده في مدينة آرام ستيفن Arrem settefen وتعني "المدينة السوداء"، وهذا يعني أن أول سلطان أتى من بلاد السودان، وبالفعل كل السلاطين المتعاقبين كانوا ذوو بشرة سوداء، ولكن الطوارق ذوي البشرة البيضاء رفضوا قبول هذا السلطان حسب الروايات الشفوية... ثم استقدموا ابن سلطان اسطنبول في منتصف القرن 15م أين تأسست مدينة أغداس، أنظر للمزيد :

Songhais et Touareg Henri Barth au Niger il ya 40 ans, Ed. weber. Sd, p. 15.

(10) يوجد اختلاف في أسماء السلاطين بين نص المخطوط الذي اعتمدنا عليه ورواية جيبو Djibo، فالسلطان أفسان يسميه جيبو أنيداس Anedesse، والسلطان إليساو يسميه "الحاج إلياس" رغم أن فترة الحكم هي نفسها بين الإثنين. أنظر: Djibo : Op. Cit., p. 284.

(11) Djibo : Op. Cit., pp. 284-285.

(12) أنظر مخطوط: "تاريخ سلاطين أهير من أصل أغيجي وتغزرت". قسم المخطوطات العربية والعجمية (IRSH)، نيامي، رقم 07.

(13) أقام بارث بمدينة أغداس مدة 20 يوما. أنظر: Henrich Barthe: **Travels and Discoveries in North and Central Africa**. 3Vs, Centry, London, 1965, V2, p. 602.

(14) Djibo: Op. Cit., p. 303.

(15) Ibid, p. 309.

(16) Idem.

(17) (M.H.) Djibo: Op. Cit., pp. 300-316.

(18) أحمد أبي يعقوب: **تاريخ اليعقوبي**. دار صادر، بيروت، دت، ج1، ص 193.

(19) محمود كعت: **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس**. نشرة هوداس، باريس، 1942، ص 70.

(20) (M.H.) Djibo: Op. Cit., pp. 404-411.

(21) في مراسلة لسلطان البورنو في سنة 1440م، كان قد بعث برسالة إلى علماء توات، يشككي لهم فيها من أن التجار لم يعودوا يقصدون بلاده بأعداد كثيرة، كما كانوا يفعلون في السابق، وقد كانت هذه الفترة من فترات ازدهار التجارة بين السودان الغربي وشمال إفريقيا، ولكن صادف في هذه الفترة أن جالية يهودية سيطرت على مرافق التجارة في توات، وهذا ما دفع الطوارق الذين تقع بلادهم بين توات وبورنو إلى العمل على عدم السماح للتجارة التي يسيطر عليها اليهود من

المرور بأراضيهم فقل ورود القوافل إلى بورنو. أنظر للمزيد: عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسفيين. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص 213.

(22) (M.H.) Djibo: Op. Cit. p. 421.

(23) Ibid, p. 422.

(24) Ibid, p. 423.

حسب "نيكولا" فإن سيادة البورنو على كال أبيير لم تتوقف إلا في القرن 18م، أين أنتهز الرحل سقوط الإمبراطوريات السوداء تزامنا مع ظهور قيادة قوية محاربة عندهم لتأخذ سيطرتها على السود المقيمين في الأزواغ، الأدر وأبعد من ذلك، ففي الأدر كان لردة الفعل لهؤلاء البدو على أن تبعثها حرب كمننة (أمير كابي) مقاطعة نيجيريا. أنظر للمزيد: Francis

Nicolas: **Tamesna : les Iwelleméden de l'Est ou Touareg Kel Dinnik.** Imprimerie Nationale, Paris, 1950, p. 49.

(25) Maurice Abadie : Op. Cit., pp. 104-105.

(26) أنظر للمزيد: عبد القادر زبادية: المرجع السابق، ص 220.

(27) تنبكت كي: تعني حاكم تمبكتو بلغة التاماشاغ.

(28) السعدي: تاريخ السودان، طبعة هوداس، باريس، 1964، ص 23-66.

(29) Boubou Hama: **Recherche sur l'histoire Touareg Saharienne et Soudanaise.** Présence Africaine, Paris, 1967, p. 203.

(30) في عهد الأسكيا محمد قام بغزو الأدر في سنة 1515م، وتمكن من هزم رئيس الأدر "أحمد المومين اللمتي"، ثم ذهب ناحية الفاشي وبيلم وترك خليفة بأغداس وكانت تضم قافلته عددا هائلا من القطعان والبقر الكثير للنقل مع الحمير، فقد كان جنوب وشرق الأدر محتلين من طرف السنغاي الذين أقاموا المراكز السكنية بها مثل: أمبوريا Empor المركز الإفريقي، تجيدة، تاكدة Takkeda، إينغال، وعدة مراكز زالت اليوم على خط أغداس الفيلانج، ولم يبق اليوم إلا بعض النواة لسكان السود كالإيساوارن Isawar'en المنحدرون من سنغاي في تجيدة نتسوم، وإينغال، وأغداس كما أنشأ السنغاي في جهة الغرب مدن السوق Es-suq، كيدال، زلادر Zelader، تدوك Tedok، تيساليت Tessalit، وامتد نفوذ السنغاي حتى منطقة توات، وإلى الترازو جنوب المغرب. أنظر للمزيد: (F.) Nicolas, Tamesna, op. Cit., p. 48.

(31) السعدي: مصدر سابق، ص 100.

(32) نفسه.

(33) تعني بلغة التاماشاغ أهل الغرب.

(34) السعدي: المصدر السابق، ص 109.

(35) Maurice Abadie : Op. Cit., p. 104.

(36) السعدي: مصدر سابق، ص 315-316.

(37) مؤلف مجهول: تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان. تحقيق هوداس، أرست لورو، باريس، 1964، ص 6.

(38) نفس المصدر، ص 33-39.

(39) نفس المصدر، ص 55.

(40) نفس المصدر، ص 100-106.

(41) نفس المصدر، ص 142.

(42) نفسه المصدر، ص 155.

(43) السعدي، المصدر السابق، ص 313.

(44) Maurice Abadie : Op. Cit., p. 105.